

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

الهدى بين الاتباع والإعراض

خطب المناسبات

اللقاء الرابع عشر من تفسير سورة الأنعام - شرح الآيات 102-110

2023-08-26

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا رب العالمين وبعد:
فهذا هو اللقاء الرابع عشر من لقاءات سورة الأنعام، ومع الآية الثانية بعد المئة من السورة، وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

(سورة الأنعام)

هذه الآية مفصلة في السورة، والسورة تتحدث عن التوحيد، فبعد أن ذكر الله تعالى آياته في الخلق، وكيف أن المشركين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۖ لَٰجِنَّ ۖ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَفُوا لَهُ ۖ تَبِينَ ۖ وَتَبَّتْ بَعِيرِ عِلْمٍ ۖ سُبْحٰنَهُ ۖ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

(سورة الأنعام)

فذكر شركهم، ثم بين أنه بديع السماوات والأرض، وأنه ليس له ولد، وليست له صاحبة، وأنه خلق كل شيء، قال بعد ذلك: (ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ) أي بهذه الصفات التي ذكرت سابقاً (ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ).



التوحيد واحد

التوحيد - كما تعلمون - كتقسيم مدرسي: هو ربوبية وألوهية، التوحيد واحد؛ أي إما أن يكون الإنسان موحداً أو أن يكون مشركاً، فلا يوجد نصف توحيد، لا يوجد إنسان عنده نصف توحيد لأنه يعترف بالربوبية، ولا يعترف بالألوهية، فالمشركون اسمهم مشركون مع أن الله قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ لِلَّهِ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ
ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

(سورة الزمر)

لكلهم مشركون، لأنهم يتوجهون إلى غير الله بالعبادة، فالتوحيد كل متكامل، لكن مدرسياً يقسمه البعض إلى: توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية لفهم القضية، لفهم التوحيد كيف يكون كاملاً حتى تتحقق منه، فهذه الآية تمثل هذين النوعين (ذَلِكَمُ لِلَّهِ رَبُّكُمْ)؛ هذه الربوبية، الرب خالق كل شيء، وما دام هو الخالق المتفرد بالخلق فهو المتفرد بالملك، وما دام هو المتفرد بالملك فهو المتفرد بالرزق، وهذه الثلاث هي التي تشير إلى معنى الربوبية، الرب خالق وملك ورزق، كل مفردات الربوبية تندرج تحت هذه الكلمات الثلاثة؛ خلق وملك ورزق، فالذي خلقنا هو الله، والذي يملكنا هو الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ إِذَا أَصْبَحُوا مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رُجْعُونَ (156)

(سورة البقرة)

بل الكون كله ملك له -جلّ جلاله -، والذي يرزقنا هو الله بجميع أنواع الرزق؛ للرزق المادي والرزق المعنوي، السكينة من الله، والماء من الله، والنبات من الله، وعمل الكلية من الله، وإبصار العين من الله؛ كله رزق، كل شيء آتاك الله فهو رزق (ذَلِكَمُ لِلَّهِ رَبُّكُمْ) هذا خلق وملك ورزق.



لا معبود بحق إلا الله

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي لا معبود بحق إلا الله، ما دام هو الرب الخالق المالك الرازق فلا ينبغي أن تتوجه بالعبادة إلى غيره، وهذه مشكلة المشركين أنهم كانوا إذا سئلوا (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمُوتَ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ لِلَّهِ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) كيف يستقيم أن تعترف بربوبيته، ثم تتوجه بالعبادة إلى غيره؟! فالتوجه بالعبادة هو مفهوم الألوهية، هو الإله المتصرف بالكون، هو الذي تتوجه إليه إذا أردت حاجة، ما دام هو خالقك ويملك أمرك وبرزقك إذا لماذا عندما تريد أن تسأل شيئاً من الدنيا أو شيئاً من الحياة فإنك تسأله لغير الله؟! هذا محض جهل، ومحض حمق أن تعترف بأنه خالقك وملوكك ورزقك، ثم تطلب من غيره (ذَلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ربوبية وألوهية، (خُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ) ربوبية، (فَإَعْبُدُوهُ) ألوهية، الآية رتب الأمر بهذا الترتيب المنطقي (ذَلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) جزء من الربوبية (خُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ)، والخلق كما قلنا يتبعه الملك، ويتبعه الرزق، (خُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ) (فَإَعْبُدُوهُ) ما دام هو الخالق المالك الرازق، (فَإَعْبُدُوهُ) وحده (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) رجعنا إلى الربوبية؛ أي -جل جلاله- حافظ لكل شيء، حافظ لكل شيء هذا معنى وكيل: رقيب على كل شيء (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) مطلع، رقيب، حافظ لكل شيء، هذه الآية هي المفصلة في السورة، سورة الأنعام كما قلنا محورها العام التوحيد فالمفصلة فيها هي هذه الآية (ذَلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ فَإَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ).

هذه الفاء (فَإَعْبُدُوهُ) عند كثير من النحاة هي الفاء الفصيحة بسمونها الفاء الفصيحة، إذا قلت: هناك امرأة فصيحة فهي امرأة تتكلم بفصاحة، وبشبه ذلك تلك المرأة التي جاءت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، الرجال سبقونا بالجمع والجماعات، وفُصلوا علينا بالجهاد في سبيل الله، ونحن قواعد بيوتكم، ومربيات أولادكم، -أو كما قالت- فماذا لنا؟ نحن ليس لنا شيء، فيقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: هل سمعتم امرأة أشد منها رجاءً أو أحسن في أمر دينها منها؟ أُعْجِبَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بكلامها، ثم وجهها إلى أن تحسن تبعل المرأة زوجها يعدل ذلك كله، يعدل الجهاد في سبيل الله، فإن قامت على بيتها وربت أولادها فقد أجز الجهاد في سبيل الله وهي في بيتها؛ هذه امرأة فصيحة، الفاء الفصيحة سميت فصيحة لأنها تفصح عن شيء محذوف قبلها، مثال ذلك الأوضح من هذا قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَيُّهَا مَعْدُونَ! فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيفُونَهِ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

(سورة البقرة)

من كان مريضاً أو على سفر ورغم مرضه أو سفره صام، فهل عليه عدة من أيام أخرى؟ هو كان مريضاً لكن مرضه محتمل فصام، فهل يتوجب عليه قضاء؟ هو ما أفطر، إذا هذه الفاء (فَعِدَّةٌ) فصيحة تشير إلى محذوف قبلها؛ أي أفطر (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) فمن كان مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخرى، أما إذا لم يفطر فليس عليه قضاء، فأفصحت عن شيء محذوف قبلها، هنا ما الذي أفصحت عنه قبلها؟ (ذَلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خُلِقَ كُلُّ شَيْءٍ) فإذا علمتم ذلك بأنه هو الرب وهو الخالق، ولا معبود بحق إلا الله، فإذا علمتم ذلك يقيناً فاعبدوه؛ هذا المحذوف (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 لَا تَدْرِكُهُ لَئِبْطٌ وَهُوَ يُدْرِكُ لَئِبْطٌ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

(سورة الأنعام)

لا تدركه: أي لا تحيط به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجُوزَاتَا يَتِيَّتِي إِسْرَائِيلَ ۖ لَبِئْسَ فَاثِمَةً فَمَنْ فَعَلَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ۖ بَغْيًا وَعَدُوًّا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ ۖ لَعَرَفُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا ۖ لَذِي ءَأَمِنْتُ
بِهِ ۖ تَتَوَّأ إِسْرَائِيلَ ۖ وَأَنَا ۖ مِنَ ۖ لِمُسْلِمِينَ (90)

(سورة يونس)

أحاط به الماء من كل جانب، فالأبصار لا تدركه في الدنيا؛ هذا المعنى الأول لا تدركه في الدنيا، لأننا نؤمن أننا سنرى ربنا، يقول صلى الله عليه وسلم:

{ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُصَاوُونَ فِي رُؤْيَيْهِ. {
(أخرجه البخاري عن جرير بن عبد الله)

رؤية الله حق، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة، لم يخالف في هذه الرؤية إلا بعض الجماعات المعتزلة، وثبت ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ ۖ تَأَصَّرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا تَأَصَّرَةٌ (23)

(سورة القيامة)

أما في الدنيا، فلما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- رأيت ربك؟

{ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ }
(أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري)

ولما طلب موسى عليه السلام أن يرى ربه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ۖ قَالَ رَبِّ أَرِنِي ۖ أَنْظِرْ لِي نَجَاتِي ۖ قَالَ لَنْ نَرِيكَ ۖ وَلَكِنْ نُنْظِرُكَ إِلَىٰ ۖ الْجَبَلِ فَإِنِ ۖ سَتَقَرَّ مَكَانَهُ ۖ فَسَوْفَ ۖ تَرِيكَ ۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ ۖ دَكَاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۖ فَلَمَّا أَفَاقَ ۖ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُنْتِ ۖ إِلٰهِي ۖ وَإِنِّي ۖ لَمُؤْمِنِينَ
(143)

(سورة الأعراف)



الله تعالى هو الذي خلق لنا الأبصار

الله تعالى هو الذي خلق لنا الأبصار وجعل لها القوانين، ومن قوانينها أن البصر في الدنيا بصر مخلوق لا يحيط بالخالق هكذا أراد الله تعالى، وهذا الأمر فيه جانبان: الأمر الأول: أنه لو رأى الإنسان ربه لأصبح الإيمان شهادة، والإيمان بالشهادة لا قيمة له وحده إذا كان إيماناً بالشهادة؛ أي إذا كان -ولله المثل الأعلى- الابن لا يطيع أباه إلا إذا كان أبوه ينظر إليه، لا يطيعه إلا إذا كان ينظر إليه ويراها بعينه، فإذا غاب عن البيت خالف كل أوامره، فما قيمة هذه الطاعة؟ ومن زاوية ثانية فإن الرؤية في الدنيا هي رقابة مستمرة، والله بعد قليل سيقول: وهو اللطيف، فهو يراقبك بلطف بحيث لا تراه وهو يراقبك، تخيل أنت أن إنساناً -ولله المثل الأعلى- يراقبك في كل لحظة ويجلس معك في كل مكان، ذهبت إلى عملك هو معك، والله لا تطيق ذلك، أربع وعشرون ساعة تخرج من جلدك، ابتعد عني، لكن الله يراقبنا بلطف-جلّ جلاله-.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

(سورة الحديد)

لكن بلطفه، **(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)** وقال بعض المفسرين: بل لا تدركه الأبصار في الدنيا والآخرة، بمعنى أن النظر يوم القيامة إلى وجه الله الكريم لا يعني أنا سندركه ونحيط به -حاشاه-، ولكنه نظر من نوع خاص لكنه ليس الإدراك؛ لأنه كل ما خطر ببالك فإن الله بخلاف ذلك، فلا تدركه الأبصار لا دنيا ولا آخرة، بمعنى أنها لا تحيط به، فأما في الدنيا لا تدركه وتشمل أنها لا تستطيع رؤيته، وفي الآخرة رؤية دون إدراك، دون إحاطة، تراه لكن دون أن نحيط به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)

(سورة البقرة)

والمعنيان مقبولان **(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)** لأنه خالقها -جلّ جلاله-، فهو يدرك الأبصار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

(سورة غافر)

فيحيط ببصر الإنسان، ويعلم سره ونجواه، ويعلم السر وأخفى، قال: **(وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)**، ناسب الحديث عن **(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)** ذكر اسمين من أسماء الله الحسنى وهما اللطيف والخبير، فاللطيف لأنه لا تدركه الأبصار فهذا من لطفه -جلّ جلاله-، والخبير من أنه يدرك الأبصار، وهو اللطيف لأنه لا تدركه الأبصار، وهو الخبير لأنه يدرك الأبصار ويعلم، وهو خبير بكل نظرة، وبكل حركة، وبكل سكنة، وبكل شيء **(وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ (104)

(سورة الأنعام)

لاحظوا الآيتين (لَا تُدْرِكُهُ ۖ الْأَبْصَارُ، (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ)، (فَمَنْ أَبْصَرَ) (وَمَنْ عَمِيَ) هذا التناسق بين البصر والعمى وإدراك البصر ونحو ذلك، قال: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ) بصائر: أي حجج واضحة بيّنة، براهين دالة على وجود الله تعالى، (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) أي فمن أبصر فأبصاره تلك البينات يعود عليه بالنفع، وهذا مثل قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ۖ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنْ ۖ هْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ۖ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَصِلُّ ۖ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا ۖ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

(سورة الزمر)

فالهداية لك والضلال عليك، (فَمَنْ ۖ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) ما معنى أبصر هنا؟ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَلَمٌ يَسِيرُوا فِي ۖ الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ ۖ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ۖ أَوْ ۖ آدَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى ۖ الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَى ۖ الْقُلُوبُ ۖ الَّتِي ۖ فِي ۖ الصُّدُورِ (46)

(سورة الحج)

أبصر بمعنى أنه انتفع بتلك الآيات، فما قيمة أن أرى الأشياء بعيني ثم لا أنتفع بها وكأنني ما رأيتها؟ لو أن إنساناً قال لك: رأيت الجوهرة النفيسة في الغابة وتركتها ومصيت، تقول له: أين كانت عيناك؟ لماذا لم تنزل وتلتقطها؟ أبصرت الحق فلماذا لم تنتفع به؟ فكأنك ما أبصرت، وهذا يشبه تماماً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21)

(سورة الأنفال)



السمع يقتضي الاستجابة

يعني لا يستجيبون، فالسمع يقتضي الاستجابة، فإن لم تستجب فكأنك ما سمعت، والإبصار يقتضي أخذ العبرة والعظة والانتفاع، فإن لم تنتفع فما أبصرت، (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) وربما يكون بصيراً في الدنيا، يُطلق عليه بصير وليس أعمى، وربما يكون أعمى في الدنيا بمعنى أنه قد أخذت منه نعمة البصر ولكنه أبصر الحق واتبعه، فالإبصار والعمى هنا للحق، والعمى هو العمى عن الحق، قال: (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) و(على) دائماً تفيد الاستعلاء، الحمل بين أن يكون الأمر لك أو بين أن يكون الأمر عليك، وكأنه نقل تحمله لأن العمى هو بعد عن الحق فهو نقل، بينما الهداية هي قرب من الحق، فهي كسب تكسيه لنفسك، يصف لك، والعمى -والعباد بالله- على الكافرين، (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ (286)

(سورة البقرة)

فكل شيء يأتي مع (على) يفيد الاستعلاء مع النفل والحمل، وذلك يشبه قوله تعالى كما قلنا: (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ (51)

(سورة التوبة)

وما قال: علينا، ليطمئنك أن ما في الأقدار إنما محصلته لك وليست عليك، فحتى لو كان ظاهره سوءاً فإن في محصلته خيراً لك، فدائماً قل: كتب الله لي، ولا تقل: كتب عليّ، كتبه لي: أي لشيء فيه مصلحتي، قد لا أدرك ذلك، فقد يأتي المرض فتقول: كتب الله علي المرض، ولا مانع من ذلك، لكن الأولى أن تقول: كتب الله لي المرض، لأن المرض يؤدي إلى اللجوء إلى الله والاعتصام بالله فيكون خيراً في محصلته لك؛ تكفير السيئات، رفع الدرجات... إلى آخره، فهو لك (فَمَنْ أَنْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ، أي لست رقيباً عليكم أحصي أعمالكم، لست حفيظاً عليكم: رقيباً عليكم أحصي أعمالكم، أنا أدعوكم إلى الله (فَمَنْ أَنْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وقال بعض أهل التفسير: بحفيظ يعني لن أحفظكم من عذاب الله إن عميت عن الحق، لكن سياق الآيات (فَمَنْ أَنْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ يعني:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

(سورة القصص)

أي لست رقيباً عليكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ لَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا دَرَسَتْ وَلِتَبَيَّنْهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

(سورة الأنعام)

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ لَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) نصرف الآيات: نوع الأدلة والبراهين: نصرفها أي نجعلها متنوعة الأدلة، ربنا -جلّ جلاله- خلق النفوس ويعلم كل إنسان، ويعلم طبيعة الخلق، فهناك من ينتفع بالبلاء، وهناك من ينتفع بالنعمة، وهناك من ينتفع بالقرآن، وهناك من ينتفع بالآيات الكونية، أفصد ابتداءً بعد ذلك ينفعه كل شيء، لكن ما هو مفتاحه؟ (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ لَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، فلم يجعل الله تعالى الآيات نوعاً واحداً، ما جعل كل عباده يأتون إليه بالنعمة، وما جعل كل عباده يأتون إليه بالنقم ولا بالأمراض، فجعل لكل آية لعله ينتفع بها، لكن في النهاية الذي لا يريد الحق لن تنفعه كل الآيات مهما كثرت، وهناك من يقرأ القرآن فينتفع بالبيان فوراً، وهناك من ينظر في الكون فيتعرف إلى الله ابتداءً بالكون ثم يقرأ كتابه، وهناك من ينظر في مصائر الأمم السابقة والأقوام الذين أهلهم الله فترتعد فرائضه، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتوع أيضاً في خطابه، فيقول أحياناً:

{ أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْخُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَتَزْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتُ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ

الخطا إلى المساجد، وائتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط. {

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)



الأشخاص يميلون إلى أحد جانبي

(بمخو الله به الخطايا) هناك أناس يحبون محو الخطايا، هو طبيعته يحب التخفف من الأثقال، وهناك إنسان يحب الأخذ **(ويتزق به الدرجات)**، فالذي يحب المحو وجد ضالته في الحديث، والذي يحب رفع الدرجات وجد ضالته في الحديث، الأشخاص عموماً كما يقول أهل علم النفس: كل منهم يميل إلى أحد هذين الجانبين؛ هناك من يميل إلى التخفف من الأحمال والأثقال (التخلص من)، وهناك من يميل إلى (الأخذ من)، مع أينائك تقول: والله عندي ابن إذا قلت له: "إن درست سأعطيك" مباشرة يدرس، وبالاطفال غالباً هذه السمة الأغلب، بالطفولة حصراً هي التشجيع، لكن في المقابل هناك من الأطفال من يميل أكثر إلى جانب العقوبة، كان تقول له: إن لم تدرس سأخذ منك الجوال، بين من يميل إلى (سأعطيك)، ومن يميل (سأخذ منك) تهديد بالأخذ، فصى الله عليه وسلم كان كثيراً في الأحاديث ما يأتي بهذه و تلك، فبعض الأشخاص يستجيبون لتلك وبعضها لتلك حسب طبيعة النفس وحالتها وطرفها في ذلك الوقت، فقال تعالى: **(وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ اللَّعَائِبِ)** ننوعها آيات نعم، آيات عذاب، آيات شكر وحمد، آيات نعم، آيات كونية، آيات تكوينية، آيات قرآنية، **(وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ اللَّعَائِبِ)** حتى لا يبقى للإنسان حجة على الله، قال: **(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ)** هذه اللام بسمونها لام المال أو لام الصبرورة ليست لام التعليل، هي تعمل عمل لام التعليل فينصب الفعل المضارع بعدها، لكن في حقيقتها لام التعليل يكون ما قبلها سبب لما بعدها أي: أدرس لتتج، هذه لام التعليل أي الدراسة سبب النجاح، أما قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلْتَقَطْهُ ۖ ءَأَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهُمَّنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ (8)

(سورة القصص)

هم عندما التقطوه التقطوه ليجزهم؟ لا، التقطوه ليفرحهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالَتْ ۙ فَرَأْتُ فِرْعَوْنَ فُرْتُ عَيْنٍ ۙ لِي وَلِكَ ۙ لَا تَقُولُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ ۙ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْتَشْعُرُونَ (9)

(سورة القصص)

لكنه كان في المال عدواً وحرماً، فالمهم المال **(وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ اللَّعَائِبِ وَلِيَقُولُوا)** في المال الذي يحصل بعد تصريف كل هذه الآيات أن المال أن يقولوا: درست، وهذه **(دَرَسْتَ)** فيها أربع قراءات صحيحة: قراءة (دَرَسْتَ)، هناك (دَارَسْتَ)، والثالثة (دُرَسْتَ)، والرابعة (دَرَسْتَ)، (دُرَسْتَ و دَرَسْتَ) نسبة للآيات، (دَارَسْتَ و دَرَسْتَ) وهي القراءة الأكثر شيوعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- ف(دَارَسْتَ و دَرَسْتَ) بمعنى واحد، (دَارَسْتَ) فيها معنى المدرسة والمجادلة بيني وبينك، و(دَرَسْتَ) أي قرأت، كما نقول اليوم: درست، هل درست دروسك؟ ي قرأت وذاكرت وكذا، وهؤلاء كانوا يقولون: **(دَرَسْتَ)** كما جاء في القرآن الكريم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4)

(سورة الفرقان)

كانوا يقولون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ۖ بَشَرٌ ۖ لِّسَانٌ ۖ لِذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

(سورة النحل)

كما قال تعالى، ما معنى (دَرَسْتِ)؟ أي في المال بعد كل هذه الآيات بدلاً من أن يستجيبوا لها، ماذا كان موقفهم؟ (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ۖ بَشَرٌ)، له تعامل مع الجن، تعلم من اليهود، من ثقافات الأمم الأخرى، بدل من أن ينتفعوا بالآيات من عند الله -عز وجل- جعلوا يلتفون عليها بنسبتها إلى أنها ليست من الله وإنما هي من دراسته -صلى الله عليه وسلم-، والله تعالى يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4)

(سورة النجم)

فحتى أحاديثه ليست من دراسته، وإنما هي وحى يوحى، وهذا سر أميته وشرف أميته- صلى الله عليه وسلم- في أنه لا يقرأ ولا يكتب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ ۖ مِنْ كِتَابٍ ۖ وَلَا تَخُطُّهُ ۖ بِيَمِينِكَ ۖ إِذَا لَمْ تَرْتَابَ ۖ لُمُتْلُونَ (48)

(سورة العنكبوت)



الذي عنده العلم يتجه إلى الآيات وتصريفها فينتفع بها

أي جعل المبطلون يشككون فيك، فأنت تقرأ وتكتب، إذا أنت درست وكتبت وخرجت لنا بهذا المنهج من عندك، (وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ)، وقراءة (ادّارست) مثلها لكن فيها مدارسة مع الآخرين أي فيها من طرفين، وأما (دُرِسْتُ و دَرَسْتُ) دُرِسْتُ بمعنى قُرأت؛ هذه الآيات قُرأت وانتهى أمرها، ودرست أي انمحت، درست الديار: لم يبق لها أثر أنها انتهت، (وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلْيُبَيِّنَ لِقَوْمٍ يُعَلِّمُونَ) أي نصرف الآيات لنبيته؛ نبين القرآن لقوم يعلمون، فالذي عنده العلم يتجه إلى هذه الآيات وإلى تصريف هذه الآيات فينتفع بها، والذي ليس عنده علم يتجه إليها بالإنكار، فيقول: درست.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)

(سورة الأنعام)

وهذه الآية أيضاً بعد كل هذا الحجاج والخصام، الله بعد كل هذا الحجاج والجدال يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ولنا من بعده: اتبع الحق الذي أوحاه الله إليك، لا إله إلا هو، لا معبود بحق إلا هو، وأعرض عن المشركين ذرهم في طغيانهم وفي غيهم، ولا تلتفت لهم فالتفاتك لهم يشغلك عن المهمة التي أنت فيها، أنت ادعهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ سَبْئٍ ۚ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ لِكَيْتَبَ ۚ لَئِذٍ جَاءَ بِهِ ۚ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۚ تَجْعَلُونَهُ ۚ قَرَاتِيسَ يُبَدُّونَهَا نُجُومًا وَيُحْمُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آتَاوَكُم ۚ قُلِ ۚ اللَّهُ ۚ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

(سورة الأنعام)

وهذا منهج، أحياناً الإنسان يدخل في صراعات جانبية وفي حروب جانبية فينسى مهمته التي هو فيها، إذا الإنسان دخل بعمل خيري وهو صادق، ومنظم، وعمله خالص لوجه الله، ومنظم وفوق ما ينبغي أن تنظم فيه الأعمال الخيرية، وبدأ الناس يتحدثون عنه، فبدأ ينشغل بالرد عليهم توقف العمل، ما دمت على المنهج الصحيح أعرض عن المشركين، فهذا منهج لنا عندما تكون على الحق فلا تلتفت إلى الآخرين، هذا لا يعني أن الإنسان لا يحافظ على سمعته، أو لا يحافظ على كلام الناس عنه، لكن عندما يكون على الطريق الصحيح فسيجد من يعاينه، فلم يسلم أحد ولا نبي الله بل إن الله تعالى -تعالى ملكه، وجلّ سلطانه- لم يسلم من أذاهم، فهم يؤذون الله فادعوا له الولد، وادعوا له البنين والبنات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۚ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۚ وَخَرَفُوا لَهُ ۚ بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْتَرِبُ عِلْمٌ ۚ سُبْحٰنَهُ ۚ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُصِفُونَ (100)

(سورة الأنعام)

فحتى الله لم يسلم من ألسنة هؤلاء، فإذا ليس لك أن تقول كما ورد في بعض الآثار، والقصة للعبارة أن موسى ناجى ربه في مناجاة-وهو موسى كليم الله-، فقال: "يا ربي لا تبي لي عدواً، فقال: يا موسى هذه ليست لي"، ليس هناك أحد بلا أعداء، فإذا كنت على الحق فأعرض عن المشركين، (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

(سورة الأنعام)



الإنسان غير مجبر

بمعنى أنك ينبغي أن تعلم أن شركهم هو ضمن المشيئة الإلهية، أي هم لم يخرجوا من سلطان الله، هل يستطيع أحد في سلطان الله تعالى أن يتصرف شيئاً لا يريد به الله؟ مستحيل، **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)** هذه الآية أنا ما أدري كيف تحول فهمها وأمثالها في كتاب الله كثير مع أنني لم أسمع أن في الصحابة الكرام أو في السلف الصالح من سأل عنه، لا أدري كيف تحول فهمها عند كثير من الناس إلى مفهوم الجبرية أو القدرية، الجبرية: **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)** معنى هذا: الله أجبرنا على الشرك، عجيب فهم عجيب فعلاً!! والقدرية: **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)** الإنسان هو يصنع نفسه لا دخل لربنا -عز وجل- بالموضوع، ضلالان واضحان بيان، الإنسان غير مجبر ولو كان مجبراً لما كان هناك ثواب وعقاب، كيف يدخله الله النار وقد أجبره على المعصية؟! هذا لا تقبله أنت من مدير مدرسة أن يجبر طالباً على الرسوب ثم يعاقبه على رسوبه، لا تستقيم، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نقبل أن الله -عز وجل- هو مالك الملك وأن العباد يتصرفون في ملكه بغير ما يريد، أنت مالك هذا البيت والجيران يدخلون متى شاؤوا ويحطمون ويخرجون وأنت تنظر إليهم، إما أنت لست مالك البيت فلا يهملك الأمر، أو أنت غير قدير على منعهم فلا يستقيم ذلك، المعنى واضح جداً، **(وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)** وأعلم أن الله -عز وجل- لو أراد أن يجبرهم لأجبرهم وانتهى الأمر، ما كان منحهم حرية الاختيار كالملائكة تماماً، الله -عز وجل- لم يشأ أن يشرك الملائكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودَهَا نَاسٌ وَالْجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ لِلَّهِ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

(سورة التحريم)

وشاء أن يشرك البشر، فترك لهم الخيار فأشركوا، فهم أشركوا بعلمه، وأشركوا بإرادته ليست الشرعية وإنما الكونية، بمعنى أنه سمح لهم أن يشركوا، تركهم ليشركوا لأن الله -عز وجل- يريد أن يحقق لك الاختيار، فلا تظن أنهم يفعلون في ملكه ما لا يشاء-حاشاه جل جلاله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْفُوتَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

(سورة العنكبوت)

الذين كفروا ظنوا أنهم تفلتوا من ملك الله -عز وجل- وأصبحوا يفعلون أشياء لا يريد بها الله -عز وجل-، لا، هم يفعلون ذلك ضمن ملك الله -عز وجل- وإرادته ليحققوا اختيارهم، وليحاسبهم على قرارهم.

(وَمَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِيًا) أنت لست رقيباً على أفعالهم، ولست موكلاً بإجبارهم على الهدى وإنما هم أصحاب اختيار، لأن الله شاء لهم أن يختاروا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا تَسْأَلُونَ إِلَّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ رُبًّا لِلْعَالَمِينَ (29)

(سورة التكويد)

هم يشاؤون لكن ضمن مشيئة الله (وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) هنا لا يد أن نميز بين كون المفردات الآن تكررت فلا بد أن لكل واحد معنى، أي لا نقول الوكيل هنا هو الحفيظ، الحفيظ بمعنى ليس لك أن تراقبهم وتحصي عليهم أعمالهم، (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) أي لست موكلاً برزقهم، أو بإعطائهم، أو بمنعهم، فليست موكلاً بشيء من حاجاتهم، وليست برقيب على أعمالهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ
فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

(سورة الأنعام)



تعامل الإنسان مع من هم على غير دينه

هذا منهج عظيم، هذه الآية وإن كانت جاءت في سبب خاص، لكن والله هي منهج عظيم في تعامل الإنسان مع من هم على غير دينه، نحتاجها في كل وقت وفي كل عصر لاسيما في عصرنا هذا (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الأصنام، لا تسبوا الهنم، هي ليست آلهة، هو سبها مشروع لأنها ليست آلهة؛ صنم يعبدونه من دون الله، لكن عندما تقول له: لعنة الله على اللات والعزرة، بس اللات والعزرة، فهو سيرد عليك فيسب الهتك الحقيقية التي هي الإله الحق، فينهاه عن سب الآلهة المزعومة كي لا يؤدي ذلك إلى مفسدة سب الله تعالى، وكان الله تعالى يقول لنا: إياكم أن تأتوا بمعروف فيؤدي إلى منكر أكبر منه، قاعدة: من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، ومن نهى عن منكر فليكن نهيه بمعروف، ولا ينبغي أن يكون الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر مؤدياً إلى منكر أكبر من المنكر الذي انتهى عنه، ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

{ إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ،

فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ. }

(أخرجه البخاري، ومسلم باختلاف يسير عن عبد الله بن عمرو)

هل هناك إنسان يلعن والديه -والعباد بالله-؟! فقال: (يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ) فيسب أمه، فما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إياكم أن تتسبوا في لعن والديكم، قال-والعباد بالله- أنت- هذا فلان الذي يفعل ذلك- قال له: أنت تلعن والديك-والعباد بالله-، سماه لاعتناً لوالديه لأنه فعل شيئاً أفضى إلى ذلك، فاليوم عندما يكون وضع مسلمين ليس كما ينبغي من القوة والمكانة فلا ينبغي أن يجاهروا أو يستخدموا الفاظاً تثير الطرف الآخر فيقوم هو بالارتداد عليهم، بلعنهم أو لعن دينهم -والعباد بالله- أو أكبر من ذلك- حاشا الله تعالى-، هذه قاعدة مهمة جداً والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستخدمها، ومن ذلك لما افتضح أمر عبد الله بن أبي بن سلول وهو زعيم المنافقين، فجاءه ابنه؛ ابن عبد الله بن أبي بن سلول وكان رجلاً صالحاً، قال: يا رسول الله، لا أحتمل أن أرى قاتل أبي، فإن شئت فأمرني فأقتله أنا، فالتني -صلى الله عليه وسلم- قال: لا، جاء سيدنا عمر قال: أريد أن أضرب عنق هذا المنافق، قال له: لا، ماذا كان تعليم النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قال:

{ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ }

(أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن جابر بن عبد الله)

أنت تعرفه منافق وأنا أعرفه منافق، لكن الناس يعرفونه صحابياً من صحابة رسول الله، فحفاظاً على سمعة الصف المسلم، إن قتلته قال الناس: محمد يقتل أصحابه، إذاً كيف تنبيهه وهو يقتل أصحابه؟ فصدت الناس عن دين الله، فلما افتضح أمره وأصبح ابنه يطالب بقتله أو يقول له: أنا أقتله إن شئت، والكل يعرفون أنه منافق خطير، يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لعمر: كيف بك يا عمر لو قتلته؟ ما رأيك؟ قال: والله لقد علمت أن أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعظم بركة من أمري، النبي-صلى الله عليه وسلم -ينظر إلى البعد، كما يقال من البعيد يستشرف المستقبل، لما قالت له السيدة عائشة: نضم الججر إلى الكعبة، قال:

{ يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُوا عَهْدَ بَيْنِكَ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلَزَفْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِنَّةً

أُذْرِعُ مِنَ الْجَجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَى الْكَعْبَةَ. }

(أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين)



الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

لا نريد أن نعيدهم إلى الشرك والكفر، ينظر إلى السمعة، ينظر إلى المستقبل، لا ينظر إلى اللحظة فقط الآنية، فهنا قد يقول إنسان: مهما صنعنا هم كفار، ولعنا صليبيهم، ولعنا كنائسهم، وأنت قد تكون تجلس في ديارهم ثم بعد ذلك هم يقومون بحالة عكسية، فتكون أنت كأنك -والعياذ بالله -الذي سببت المسية لدينك، و لكتاب ربك، بالمناسبة هم اليوم تحديداً للأسف الشديد لا ينتظرون فعلاً حتى أتوا برده فعل، حتى تكون صادقين لكن لا بد هذا المنهج أن يبقى مائلاً لو بحالات فردية شخصية، أنت لست مكلفاً أن تسب، أنت مكلف أن تدعو إلى الله -عز وجل -بالحكمة والموعظة الحسنة، نحن لسنا في حالة حرب، نحن لسنا في أخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِأَنَّهَا لِنَبِيِّ جُهْدٍ لِكُفَّارٍ وَ لِمُتُوفِينَ وَ عُلْمًا عَلَيْهِمْ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمَ □ وَيَسَّرَ لِمَصِيرٍ (73)

(سورة التوبة)

هذه أخلاق بعد قيام الدولة المسلمة، وبعد إعلان الجهاد يأتي جاهد الكفار، أما نحن اليوم بأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
دُعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ لِمُوعِظَةٍ لِحَسَنَةٍ □ وَ جِدْلُهُمْ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ □ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

(سورة النحل)

هذه أخلاق اليوم فقط حكمة وموعظة وجدال بالتي هي أحسن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

(سورة الأنعام)

أي اعتداء (بغير علم) أي جهلاً، اعتداءً وجهلاً؛ أي قد يفعلون ذلك اعتداءً وجهلاً بعظمة الإله، وكل إنسان يتجرأ على الله -عز وجل- فهو يعتدي -والعباد بالله- وجهلاً، ومن أعظم ما يصلني من فتاوى اليوم أن يتصل رجل أو تتصل امرأة يقول: والله أنا غضبت و -والعباد بالله- سببت الله تعالى، هل طلقت مني زوجتي؟ فأقول له: تمهل قليلاً، القضية ليست في أن زوجتك تطلعت منك أو بقيت على ذمتك، القضية أعقد من ذلك بكثير وأعظم من ذلك بكثير، القضية أنك تجرات على الله، يقول: والله يا شيخ كنت غاضباً، نقول له: والله لو كنت غاضباً ووصلت معك أينما تصل لا تتجرأ أن تسب رجلاً له مكانة في البلد، تخشى أن يسمع أحد فتقوم عليك الدنيا ولا تقعد، لكن لأن الله جعلته أهون الناظرين إليك، وما أعظمته حق عظمته فقد قلت ذلك، (كذلك زيننا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم) أي زين لأهل الهداية هدايتهم، ولأهل الضلال ضلالهم، لو لم يكن الضلال مزبناً لما اتبعه أحد، ولو ما كانت الهداية مزينة لما اتبعها أحد، لكن ربنا -عز وجل- بالفطرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولٌ ۚ اللَّهُ لَوْ شَاءَ لَو طَيَّبَعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَيْنُمْ ۚ وَلَكِن ۖ اللَّهُ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ
إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)

(سورة الحجرات)

لكن الشهوات مزينة، لا نستطيع أن ننكر أن الشهوة مزينة، المال مزين، (كذلك زيننا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فنبئهم بما كانوا يعملون) أي نتائج أعمالها، يعرض عليهم أعمالهم ونبئهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَنَّهُمْ آيَةٌ لِّبُؤْسٍ بِهَا فُلَّ لِيُؤْمِنُوا بِهَا فُلَّ إِنَّمَا أَلْهَأْتُمْ عَنِ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ

(سورة الأنعام)

أي حلفوا بالله بأشد أنواع الأيمان (جهد أيمانهم) أي أشد أنواع الأيمان، (لئن جاءتهم آية لئؤمنن بها) هؤلاء المشركون أقسموا بالله لئن جاءهم محمد آية من الآيات التي اقترحوها ليؤمنن بها، آيات مثل ما فعل قوم موسى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قُلْتُمْ يُمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ لِلَّهِ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم مِّنَ الصَّعِقَةِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55)

(سورة البقرة)

قوم عيسى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنكَ ۖ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَبِيرٌ
الرَّزِيقِينَ (114)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَدًا وَمِنْ الْجِبَالِ رُدًّا (90) أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن رُّحُوفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ
 بِرُفُوقِكَ حَتَّىٰ نُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نُّفَرِّقُ بِهِ فُلَّ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)

(سورة الإسراء)



الإيمان غيب

هؤلاء دائماً يطلبون الشهادة؛ أي نريد أن نرى بأعيننا حتى نؤمن، وربنا -عزَّ وجلَّ- أغلق هذا الباب لا سيما على أمة الإسلام، الإيمان غيب، نعم هناك بعض المعجزات الحسية التي رآها أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن ليس من الحكمة، وليس من المصلحة، وليس من الإيمان، وليس من الأدب مع الله تعالى أن تطلب شيئاً خارقاً حتى تؤمن، كل الكون يدل على وجوده، كل القرآن يدل عليه، كل الآيات الكونية والأفعال تدل عليه، ثم تقول: أنا أحب أن أرى بعيني، هذا اسمه سوء أدب مع الله -عزَّ وجلَّ- لأن الإيمان هو غيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

(سورة البقرة)

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا) آية من الآيات التي يريدونها، هي جاءتهم الآيات كلها، لكن هذه من الآيات التي هم اقترحوها، (قُلْ إِنَّمَا
 آيَاتِي لِلَّذِينَ آمَنُوا وَبِظَنَنِي أُنزِلَتْ) هذا الشأن من شأن الله، ليس لك أن تطلب، أنت لا يحق لك أن تطلب من هذه الآيات شيئاً، الله -عزَّ وجلَّ- إن شاء نزل آية، وإن لم يشأ لم ينزل؛ هذه إرادته (قُلْ إِنَّمَا آيَاتِي لِلَّذِينَ آمَنُوا وَبِظَنَنِي أُنزِلَتْ) أي أمرها لله وليس لك أن تقترح آية حتى تؤمن، مثل طالب قال للأستاذ: أنا متفوق كثيراً، لكن أنا أريد هذه الأسئلة بالامتحان، إذا أحضرت لي هؤلاء أنجح، أما أولئك لا أنجح فيهم، هذا شأن المدرس؛ المدرس يأتي لك من القسم الأول بالكتاب، من القسم الأخير، من القسم الأوسط هذا شأن المدرس من أين تأتي الأسئلة والامتحانات، أنت ليس لك أن تفرض مادة الامتحان والأسئلة.

(قُلْ إِنَّمَا آيَاتِي لِلَّذِينَ آمَنُوا وَبِظَنَنِي أُنزِلَتْ) وما يشعركم أنها إذا جاءت، وما يعلمكم أنها إذا جاءت، وما يدريكهم أنهم لن يؤمنوا إذا جاءتهم الآيات، الله -عزَّ وجلَّ- أعلم بالنفوس، ويعلم أن طلبهم لهذه الآيات هو طلب تعجيزي، وأن الإيمان متعلق بقرار شخصي، وأن صدودهم عن الإيمان هو لشهوات استقرت في قلوبهم، وأن مصالحهم في الكفر فيقوا عليه، وفي الشرك المزعوم من أجل أن تبقى لهم المكانة والآلهة المزعومة التي يستعبدون الناس بها، فالفضية ليست في الآيات، فيقول تعالى للمؤمنين: وما يدريكهم إذا جاءت لا يؤمنون، حتى إذا جاءت لن يؤمنوا، لكن إذا نزلت الآيات أنا قلت: ليس من مصلحة المؤمن أن يطلب الآيات لأن الله إذا نزلت الآيات لا يمهل بعدها، عند نزول الشهادة إذا لم يؤمن الإنسان يؤخذ -والعياذ بالله- بالعذاب فوراً.

قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُتْرَلْهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ ۖ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ ۖ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (115)

(سورة المائدة)

الإمهال، ربنا أعطاك مساحة طالما أن الإيمان غيب، يعطيك مساحة كافية لكل إنسان وفق علمه به حتى يأخذ قراره، أما إذا نزلت الآية بعدها يحل العذاب بالقوم كلهم، فليس من مصلحة أحد أن تنزل الآيات الصارخة ثم لا يؤمن بها؛ لأن الله يعاجلهم عندها بالعذاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَتَدَّرُّهُمْ فِي طُعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

(سورة الأنعام)



نقلب أبصارهم وأفئدتهم أي الحيرة وعدم الاهتداء

الأفئدة: جمع فؤاد؛ وهو القلب، وأبصارهم: البصر المعروف، (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أي نقلب أبصارهم وأفئدتهم كناية عن الحيرة وعدم الاهتداء، ما معنى إن الإنسان فؤاده؛ قلبه متقلب وبصره متحول؟ أي لا يؤمن؛ كناية هذه (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ) ما معنى كناية؟ مثلاً العرب تقول: فلان كثير الرماد، إذا فهم إنسان فقط بأنه كثير الرماد؛ عنده رماد كثير بيته، ما فهم مراد الشاعر، كثير الرماد: كريم يوقد النار كثيراً فيكثر رماده، يقول: هذه فتاة بعيدة مهوى القرط، حلقها بعيد عن الكتف؟! أي رقبته طويلة صفة من صفات الجمال عند العرب، فهذه تسمى الكناية: يذكر شيئاً صورة معينة تكني عن شيء، فـ (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ) كناية عن حيرتهم وعدم اهتدائهم كما لم يؤمنوا به أول مرة عند النزول، لو نزلت الآيات مرة ثانية لحالت الآيات وحلنا دون هدايتهم بها كما أنهم أول مرة لم يؤمنوا بالآيات الأولى؛ أي النتيجة واحدة الإنسان الذي لم يتخذ قراراً بالإيمان لن تنفعه أي آيات سواء كانت آيات من الشهادة أو من الغيب، سواء كانت آيات قرآنية، أو كونية، أو تكوينية، سواء كانت آيات محسوسة أو معقولة (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الكثرة سوف تُعاد عند نزول كل آية، سَنُقَلِّبُ أَبْصَارَهُمْ وَأَفْئِدَتَهُمْ وَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ: لأنهم لم يتخذوا قراراً بذلك، ولأن شهواتهم ومصالحهم عندهم أعظم من الإيمان بالله تعالى، (وَتَدَّرُّهُمْ فِي طُعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ) أي حيارى يتخبطون، يعمه: يتخبط، محتار، غير مهتدٍ، تخيل إنساناً المنهج عنده واضح، والهداية واضحة، والحق واضح، ومطمئن لليوم الآخر، ومطمئن لما بعد الموت، تخيل حاله وهدوءه عند الموت، وهدوءه عند استقبال النعم، وهدوءه عند استقبال النقم غير متخبط، وتخيل حال هذا الإنسان المحتار، (وَتَدَّرُّهُمْ فِي طُعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ) أي في جبروتهم وفي ضلالهم، وفي تدميرهم، وفي غيهم؛ كل هذه المعاني معاً في الطغيان والتكبر والصلال، والبعض فسر الطغيان هنا بالصلال؛ لأن الطغيان هو مجاوزة الحد فالصلال هو مجاوزة للحد في الهداية، والطغيان أيضاً يطلق على التكبر والتجبر، فيدل على المعنيين معاً، يعمهون: أي يترددون محتارين، غير مهتدين، لا يعلمون أي طريق يسلكون فهم ضالون، والحمد لله رب العالمين.